مجتمع

وزير الصحة العامة اللبناني: مخزون الأدوية كافٍ

وسط شائعات كثيرة حول انقطاع الدواء وسط العدوان الإسرائيلي على لبنان، شدّد وزير الصحة العامة اللبناني في حكومة تصريف الأعمال فراس الأبيض، أمس الأحد، على أنّ «الأدوية مؤمنة في كلّ الصيدليات والمخزون كافٍ»، مشيراً إلى «أهمية الشركات المحلية المصنّعة للأدوية في حال الحصار». كذلك نقلت الوكالة الوطنية للإعلام عن الأبيض قوله إنّ «استهداف الطواقم الطبية أو مستودعات الأدوية والمخازن جريمة حرب مرفوضة». وعن النقص في العاملين في القطاع الصحي، رأى أنّ «الأهمية تكمن في التنسيق لأنّ العدد لن يكفي في الأزمات». (أسوشييتد برس)

كولومبيا... سكان أصليون بمواجهة جفاف الأمازون

تفيد الوحدة الوطنية لإدارة المخاطر والكوارث في كولومبيا بأنّ تدفّق نهر الأمازون انخفض بنسبة 90%، في منطقة ليتيسيا الحدودية مع البرازيل وبيرو. تضيف أنّ «النهر هو وسيلة النقل الوحيدة لعدد كبير من السكان الأصليين، ومع جفاف روافده باتوا معزولين تماماً» عن العالم. وبحسب مرصد كوبرنيكوس الأوروبي لتغير المناخ، فإنّ الجفاف يتزامن مع أسوأ حرائق تشهدها غابات الأمازون المطيرة، منذ نحو عشرين عاماً. وقد وُصف الجفاف الحالي بأنّه «أسوأ أزمة مناخية» عرفتها المنطقة على الإطلاق. (فرانس برس)

فلسطينيون ينزحون من جديد في شمال قطاع غزة (محمود عيسى/ فرانس برس)

شمال غزة تحت النار للأسبوع الثالث

ما زالت المشاهد المؤلمة ترد من شمال قطاع غزة، حيث تشنّ القوات الإسرائيلية واحدة من عملياتها الأكثر وحشية منذ أكثر من عام على حربها على فلسطينيي غزة

يوسف أبو وطفة

للأسبوع الثالث، يعيش الفلسطينيون في شمال قطاع غزة المعزول عن الجنوب والوسط ما سبق أن اختبروه في الأيام الأولى من الاجتياح البري الإسرائيلي على شمال القطاع في أكتوبر/تشرين الأول 2023. ومن جديد، راح القصف الجوي كما المدفعي يطارد سكان شمال قطاع غزة، الذين اضطروا إلى النزوح من منزل إلى آخر تحت وطأة الضغط والتهديد.

ومنذ الأول من أكتوبر الجاري، يقطع الاحتلال الإسرائيلي المساعدات الغذائية بالكامل عمّن تبقّى من السكان في شمال قطاع غزة، الذي يضم محافظة غزة ومحافظة شمال غزة، على الرغم من المزاعم الصادرة عن السلطات الإسرائيلية السياسية والعسكرية التي تدّعي إدخال الإمدادات اللازمة إلى المنطقة. في الواقع، يحجب الاحتلال كلياً المساعدات عن الفلسطينيين في شمال قطاع غزة المعزول، ولا سيما عن سكان مخيم جباليا وبلدات جباليا البلد وبيت لاهيا وبيت حانون والمناطق الغربية من محافظة شمال غزة، فيما يسمح بإدخالها إلى مدينة غزة بكميات محدودة لا تلبي احتياجات سكانها. يُذكر أن الاحتلال الإسرائيلي أعلن، في السادس من أكتوبر الجاري، أنه لن يسمح لحركة حماس بإعادة تنظيم صفوفها في الشمال، وشنّ هجوماً جوياً وبرياً واسع النطاق وشدّد حصاره على المنطقة التي دمّرتها الحرب الإسرائيلية ودفعت عشرات الآلاف إلى النزوح. وفي هذا الإطار، قطع الاتصالات عن مناطق شمال القطاع، الأمر الذي أدّى إلى انقطاع تواصل الأهالي في ما بينهم، في حين أُطلقت مناشدات لإجلاء المحاصرين من قبل قوات الاحتلال. وتقدّمت آليات الاحتلال الإسرائيلي في محاور عدّة بمخيم جباليا ومدينة بيت لاهيا ومشروع بيت لاهيا وسط حصار تام لهذه المناطق، علماً أن من ضمنها تقع مستشفيات كمال عدوان والإندونيسي والعودة. وقد أتى ذلك إما بالحصار البري عبر الآليات العسكرية، وإما بالحصار الناري عبر القصف الجوي والمدفعي والمسيّرات، الأمر الذي تسبّب في استشهاد وإصابة عشرات من الفلسطينيين. وتواجه المستشفيات صعوبة كبيرة نتيجة للقصف الإسرائيلي الذي يطاولها بين فترة وأخرى، والذي ألحق أضراراً جسيمة، كان أبرزها تدمير المولد الكهربائي الخاص بالمستشفى الإندونيسي، عدا عن منع إدخال الوقود اللازم لتشغيل المولدات الكهربائية عموماً ومركبات الإسعاف والدفاع المدني. ويتنقّل السكان بين ناحية وأخرى، محاولين بذلك البقاء في شمال قطاع غزة الذي سبق أن أمرهم الاحتلال بإخلائه والخروج إلى مناطق في اتجاه الجنوب زعم أنّها «آمنة». لكنّه عاد ليفرض حصاراً مشدّداً وليمنعهم من التنقّل، وراح يستهدف كلّ من يتحرّك، الأمر الذي يكذّب الرواية الإسرائيلية بشأن «الإخلاء الآمن».

وسُجّل في الأيام الماضية خروج صحافيين ووسائل إعلامية من شمال قطاع غزة، على خلفية الخطر الكبير الذي يتهدّد حياتهم والاستهداف الإسرائيلي المتكرّر لهم، علماً أنّ ذلك أدّى إلى استشهاد وإصابة تسعة منهم، في خلال العملية العسكرية البرية الثالثة التي تستهدف مخيم جباليا والتي تتواصل للأسبوع الثالث على التوالي.

وقد استخدم الاحتلال الإسرائيلي أسلوب «الكمّاشة» أو ما يُعرف بأسلوب «طنجرة الضغط» في مساعيه إلى السيطرة على مختلف مناطق الشمال التي تلجأ إلى الضغط العسكري الشديد، مع تقدّم الآليات والقوات البرية على الأرض، وتحديداً في ساعات الليل لتفادي الاشتباكات مع المقاومة الفلسطينية في تلك المناطق. ويعاني نحو 200 ألف فلسطيني في محافظة شمال القطاع من الجوع، بسبب ما تنتهجه قوات الاحتلال منذ أكثر من عام، وسط رفضهم إخلاء منطقتهم والتوجّه نحو مناطق في جنوب القطاع ووسطه. تُضاف إلى ذلك معاناة الفلسطينيين الصحية من جرّاء انهيار المنظومة الصحية وغياب الرعاية الكاملة بفعل حرب الإبادة الجماعية المستمرة منذ السابع من أكتوبر 2023. ومع تصاعد وتيرة العمليات العسكرية وإعلان الاحتلال توسيع عمليته البرية في شمال قطاع غزة المعزول، تُقدّر أعداد الشهداء بنحو 600 شهيد إلى جانب مئات الإصابات، من دون أن تتوفّر أيّ إحصاءات رسمية دقيقة، لأنّ عشرات الشهداء ما زالوا تحت الأنقاض أو في الشوارع، إذ لم تتمكّن الطواقم الصحية ولا فرق الدفاع المدني من انتشال جثثهم بفعل القصف الإسرائيلي العنيف.

يُذكر أنّ منسقة الأمم المتحدة للشؤون الإنسانية بالإنابة جويس مسويا كانت قد أفادت، أوّل من أمس السبت، بأنّ الفلسطينيين يعانون «أهوالاً تفوق الوصف» في شمال قطاع غزة المحاصر، وأنّ «أخباراً مروّعة» تأتي من هناك. أضافت أنّ «عشرات آلاف الفلسطينيين هُجّروا قسراً»، فيما «بدأت الإمدادات الأساسية تنفد. وقد ضُربت المستشفيات المكتظة بالمرضى». وشدّدت المسؤولة الأممية على ضرورة «توقّف هذه الفظائع». ويرفض الفلسطينيون في شمال قطاع غزة النزوح نحو مناطق الجنوب أو الوسط، إذ اتّضح زيف الادّعاء الإسرائيلي بأنّها «مناطق آمنة». وبحسب مشاهدات «العربي الجديد»، فإنّ عدداً كبيراً من النازحين الذين حاصرهم الاحتلال في مراكز الإيواء خلال الأيام الماضية وأمرهم بالتوجّه صوب جنوب القطاع رفضوا ذلك، وسلكوا مسارات أخرى نحو المناطق الغربية أو الشرقية لمدينة غزة أو وسطها، في رفض للنزوح الكلي الذي يسعى الاحتلال إلى فرضه على السكان في شمال قطاع غزة أخيراً، مع العلم أنّه كان قد بدأ يصدر أوامر إخلاء منذ الأيام الأولى من حربه في أكتوبر 2023. وقبل عمليات النزوح القسرية، تنكّل القوات الإسرائيلية بشدّة، فتعمد إلى فصل النساء والأطفال عن الرجال، فيما تُنفّذ عمليات اعتقال بحقّ أعداد من الرجال، وسط تهديدات بعمليات إعدام ميدانية شبيهة بما سبق أن نفّذتها في العمليّتَين العسكريّتَين السابقتَين في مناطق مخيم جباليا خصوصاً وفي شمال قطاع غزة عموماً. وتجبر قوات الاحتلال أهالي الشمال على النزوح بقوة السلاح وبالتهديد بالقتل، ولا سيّما أنّهم كانوا بمعظمهم يرفضون الخروج من مناطقهم. لكنّ التقدّم البري والضغط العسكري أجبراهم على النزوح، وإن جزئياً، أي إلى مناطق غربي مدينة غزة، على أمل العودة إلى مناطقهم في حال انتهت العملية العسكرية قريباً.

إلى جانب ذلك، يخضع فلسطينيون كثيرون اعتقلتهم قوات الاحتلال إلى تحقيقات ميدانية، قبل الإفراج عنهم وإجبارهم على النزوح من أماكن وجودهم، في مشهد يعيد إلى الأذهان ما جرى في الفترة السابقة من الحرب، وذلك بالتزامن مع استمرار عمليات النسف التي تنفّذها تلك القوات، مستهدفةً فيها منازل الفلسطينيين في المناطق الغربية لمخيم جباليا.

وبينما يمضي الاحتلال في نفي أن يكون ما يحصل في شمال قطاع غزة تنفيذاً لـ«خطة الجنرالات»، فإنّ المشهد الميداني يؤكد الأمر. ومنع إدخال المساعدات وقطع الاتصالات واستهداف المستشفيات تعكس رغبة الاحتلال في تهجير نحو 400 ألف فلسطيني ما زالوا في محافظة غزة ومحافظة شمال غزة، وذلك في اتجاه وسط القطاع وجنوبه، ليصير شمال القطاع بقعة جغرافية عسكرية خالصة.

ويتملّك الخوف فلسطينيين كثيرين في شمال قطاع غزة المعزول الذي يتعرّض مرّة ثالثة إلى عملية عسكرية وحشية. محمد السيد، من سكان مخيم جباليا للاجئين، واحد من هؤلاء، يضطر إلى النزوح مع عائلته من منزل إلى آخر بصورة يومية. يقول السيد لـ«العربي الجديد» إن «المشكلة الكبرى بالنسبة إلينا تتمثّل في معاناة الأطفال والنساء، وأجواء الهلع المنتشرة بفعل عمليات القصف الإسرائيلي التي لا تتوقّف، إلى جانب الجوع والعطش وعدم توفّر أي مساعدات في شمال قطاع غزة منذ بداية شهر أكتوبر الجاري». ويؤكد أن «الرعب مسيطر علينا، ونحن نتنقّل بصعوبة وبقلق. لا تتوفّر منطقة آمنة هنا، في حين أن كلّ من يتحرّك مستهدف بالقصف وكذلك بإطلاق النار المباشر من طائرات الكواد كابتر (المروحية)، بالإضافة إلى الحصار الشديد المفروض علينا من قبل الاحتلال». ويتابع السيد: «اعتدنا النزوح منذ عام كامل، ولا بديل عن ذلك ولا مكان أمناً»، مشيراً إلى أنّ «في كلّ مرّة نشعر باقتراب الموت بسبب القصف الإسرائيلي وصعوبة الحركة وعدم توفّر مقوّمات الحياة».

وكان المرصد الأورومتوسطي لحقوق الإنسان قد طلب التعامل مع ما يجري في شمال قطاع غزة بوصف المنطقة «منكوبة»، من خلال «ما يقتضيه ذلك من تدخلات عاجلة، أوّلها إلزام إسرائيل بوقف هجومها ضدّ المدنيين، وتوجيه مساعدات طارئة منقذة للحياة بشكل عاجل، ووقف حملة الإبادة الجماعية العنيفة التي ترتكبها ضدّهم».

نزوح بكلّ الوسائل المتاحة في شمال قطاع غزة (محمود عيسى/ فرانس برس)

عن الإبادة والنقصان

شهادات ناجيات وناجين من حرب غزة

هذه شهاداتٌ لناجين وناجيات من الحرب في قطاع غزّة التقيْناهم في البرزخ. حكاياتٌ مَسمُولةٌ بالأشواك تُحاول التحديقَ في الفاجعة، سلسلةُ قصص توثيقيّة تبحث في ثيمة النُّقصان. هُنا بشرٌ فقدوا كُلّ شيء: عائلاتهم، بُيوتهم، أطرافهم، أحشاءهم، قطعًا من اللّحم اعتادتْ أن تكسو عظامَهم، حواسّ زوّدتهم بها البيولوجيا للالتقاط معلوماتٍ عن العالم الخارجيّ، ورقّة تَين توارِي سَوآة خطيئة لم يقترفوها، ولغة مُتماسكة لم يُصبهَا ما أصاب أصحابها من تشظٍ وشتات واشتحالة إلى أشلاء مُتناثرة. قصص النُّقصان هذه: نُقصان الاجتياد من أعضائها، الخريطة من تضاريسها، الزّبَة من بقلها وقثائها وزيتونها، البحْر من أسماكه، القصائد من وزنها وقافيتها، المنظومة التّعليميّة من أساتذتها وتلامذتها، المشافي من حَيَّة دَوّاء، قصص تُحاول الاكتمال عَبْر روي النُّقصان، صَوْت الضحية - التي لم تَعُد تَملكُ غَيْر ذاكرتها فعْلا لِلمُقاومة - لِجَعل اللغة البَشريّة الحسّيّة قَادِرة على تَجسيد اللاّم او النّظر إليه، إنها مُحاولَة لرؤية الإبادة من وُجهة نظر خَاصّة بِلحْظة مُعَينَة تَبحث فِيمَا حدث لِفلسْطينيّي غزّة بَعْدَ السَّابعِ من أكْتُوبَر.

هذه الشهادات التي تكتُبُها الروائيّةُ سمر يزبك وتنشُرُها «العربي الجديد» على حلقات ستصدُرُ لاحِقا في كتابٍ يحملُ اسمَ «ذاكرة النُّقصان».

شهادة **جيهان البكري**

سرقوا جُثث أطفالي

سمر يزبك

كانت تتكلمُ بهدوء، تعيدُ وتكرّرُ كلماتها محاولةً إقناعَ نفسِها بما حصل. العائدون من الموتِ -ربّما- يعتقدُون أنّ الحياةَ أكثرُ هشاشةً من أن تصدّق. -ربّما هم أنفسُهم. ما زالوا غيرَ مصدّقين أنهم أحياء. كانتْ مجزرةُ عائلة البكري كما درجَت القضائيّاتُ على تسميتِها خبرًا من أخبارِ حربِ الإبادةِ المعلنةِ على غزّة، لكنّ الألمَ المرسومَ على وجوهِ الناجين -على وجهِ جيهان- يبدو كأنّه يكفي لتكثيفِ كلّ الألمِ البشريّةِ في قلبِ إنسانٍ واحد.

قلبي كان متأكدًا أنّ زوجي سيأخذ أطفاله عنده

أنا جيهان البكْري، كنتُ أمّا لطفلين حين بَلَغتُ من العُمْر ثلاثين عامًا، دَرستُ الأدبَ العربيّ في غزّة وكنتُ أسكنُ في خان يُونس. قبل يومين من السابع من أكتوبر، كُنتُ في المُستشفى بسبب الألم شديدةٍ في البَطن، اكتشفُوا أنّ لديّ التهابًا شديدًا في الزّائدةِ الدوديّة، لذلك نُقلتْني زَوجي إلى المُستشفى، وهناك أجروا لي عملاً جراحيًا، وبقيتُ لاستكمالِ العلاج. كان أطفالي وقتَها عند أختي هناء في بيتِ أهلي؛ لكنّي عندما بدأ القَصْف خِفْتُ على أطفالي، لذلك لم أنتظرْ انتهاءَ العلاج، فخرجتُ من المُستشفى وأخذتُهم من بيتِ أهلي وعُدتُ بهم إلى بيتي. تعلمين؛ الوالدةُ في بيتِها تكون أكثرَ راحةً مع أبنائها. بَقيتُ هناك خلالَ الأسبوع الأول من الحَرب، لم أترُكْ بيتي رغمَ اشتدادِ القَصْفِ ورُغم كلّ ما كنتُ أعانيه من ألمٍ. نحن نسكنُ في مِنْطقة (مَعْن) في مدينة خان يُونُس. ثمّ كانَ أنْ ازدادَ الوضعُ سوءًا، لم يَحتملْ زَوجي مشاعرَ الخَوفِ الشديد في عيونِ الأطفال، كان قلبُه يتقطع حُزنًا عليهم، كنت أرى ذلك في عيونِه، لذلك عندما طلبَ مِنّي أنْ أعودَ بهم إلى بيتِ أهلي، وافقتُ فورًا. كان الأطفالُ مُذعورِين، كانوا خائفينَ من الدمارِ والضربِ الذي كان يُحيطُ بنا والمباني تتساقطُ حولَنا.

في الثاني عشرَ من أكتوبر، سمعْتُ الإسرائيليّين قَصَفوا جِرَارًا ناريًا حولَ بيتِنا. خِفْتُ كثيرًا على زَوجي، ولم يكنْ هناك أيّ وسيلةٍ للتواصل، في الليلِ حاولْتُ الاطمئنانَ عليه دُونَ جدوى، ثمّ علِمْتُ أنّه أُصيبَ؛ لم أكنْ أعرفُ ما يَحْدُثُ، كانتِ الاتصالاتُ والإنترنتُ مقطوعةً. في البداية، قالوا إنّه مُصابٌ، ثمّ قالُوا إنّ حالَتَهُ تَسوءُ، ولم يطل الأمرُ حتّى أخبروني أنّ زَوجي استُشْهِدَ فورًا، قُتِلَ في القَصْف! لم أستوعبِ الأمرَ في البداية؛ «يعني خَلَصْ، ما عاد يرجع»؟! أرْسَلنا لِيَنْقذُنا ومات عِوَضًا عنّا! انهَزَمْتُ تمامًا، كان كلّ عالَمي؛ كُنتُ أشعُرُ بشيءٍ ما في ذلك اليوم، حتّى قبل أن أعرفَ؛ كُنتُ أدعو لِزَوجي منذُ الصباح لأنّ إحساسًا غريبًا جعَلَني أشْعُرُ بموتِه! كان قلبي يَعْلمُ؛ قلتُ لهم، لقد عرفتُ هذا في قلبي ولم أتكلّمْ! كان استشهادُ زَوجي أول كارثةٍ في بيتِنا؛ بَكَيناه جميعًا؛ أمّي وأبي بَكَيا! كان مَحبوبًا جدًا، كانت أمّي تقولُ إنه ابنٌ لها! لقد مَرِضَتْ بعدَ موتِه! زَوجي كان مَدَنيًا، لا دخلَ له بالسياسة، كان إنسانًا استثنائيًا، مُحبًا وعَطوفًا. وفي النهايةِ قُتِلَ بالقصف مع ابن عمّه جمال أبو النجا، ذَهَبْتُ إلى بيتي لأُوَدّعَه قبل دَفْنِه. وَدَّعْتُهُ؟ نَعَمْ، وَدَّعْتُهُ؛ ثمّ دَفَنّاهُ تحتَ القَصْف. تعرفين؛ رغمَ أنّ الحربَ كانت في بدايتِها لكن لم يكنْ هُناك فرصةٌ لكثيرٍ من البشر لِدَفْنِ مَوْتاهم، كان الإسرائيليّون يَقْصفُون المشْيعين وهمْ في المقبرة فيَقْتلُون آخرين، يَذهب الناس في غزّة لدفنِ واحدٍ فيُدْفنون أكثرَ وهكذا...

عدْتُ للبيتِ رُغمَ القَصفِ الشديد. كانتْ ذِكْرياتُنا هُنا وزَوجي في كلّ مكانٍ هُناك، بَقيتُ حتّى العصر، وكنتُ أراهُ ماثلًا أمامي في كلّ زاويةٍ؛ أراهُ بوضوحٍ! عُدْتُ إلى بيتِ أهلي، لم أحتملِ البقاءَ في البيتِ من دونِه، رأيتُ مَلابسَهُ أمامي ولم أحتملْ! الحياةُ لا تُطاقُ من دونِه! صِرْتُ نازحةً في بيتِ أهلي، كانت إقامةً صعبةً، ضائقةً على أطفالي ولم أصْدِّقْ بعدُ أنّ زَوجي مات. شعَرْتُ بقلبي، قَلبي الأمّ، أنظرُ إلى أطفالي وأقولُ لمن حولي إنّ أبَاهم سيأخذهم لأنه يُحبّهُم. حاولوا تهدئتي ولكنّ قلبي كان يَخْفقُ بشدةٍ والدّمعُ يجتاحُني. أنظرُ إلى أطفالي بخَوفٍ، أنظر إلى كلّ من حولي بخَوفٍ؛ قلبي كان متأكدا أن زَوجي سيأخذ أطفاله عنده. صلّينا العشاءَ، وتَنَبّهَا الأولادُ في بيتِ أهلي، وكانتْ أختي هناءُ بقربي. زَوجُها كان مسافرًا، وكنّا الأخواتُ والأخوةُ جميعًا في بيتِ العائلة. أخي الكبيرُ يسكنُ في الطابقِ فوقَنا، وفوقَه أخي الثالثُ والرابعُ. زَوجُ هَناء مُهاجرٌ في ايسلندا، ولديها وبنتٌ، وهي مُقيمةٌ مع أهلي منذ غياب زَوجِها، فبقي أولادُها معنا. تلك الليلةَ، كان هُناك ثمانيةُ أحفادٍ لأبي، نَبَقناهم معًا. أخرُ شيءٍ أذكرُه تلك اللحظةَ أنّ أمّي كانتْ تصرُخُ بنا لنبقى معها في الغرفة. قُلنا لها أنا وأختي أنّنا نريدُ تهدئةَ الأولاد، فهم يَخْبُون كثيرًا ولا نُريدُ إزعاجَها. ثمّ فجأة، طرَتْ في الهواء! كان ذلك يومَ الثامنَ عشر من أكتوبر. الأشياءُ الغريبةُ التي تحدثُ للإنسان تبدو مثلَ الخيال، كلّ الكلامِ الذي نسمعهُ عن القصف لا يُشبهُ أيّ شيءٍ.

وجع لا مثيل له (أحمد عابد/ فرانس برس)

كُنا نَضُمُّ أطفالَنا الصِّغارَ الأربعةَ إلى أحضانِنا، نُصلّي. ثمّ كان أن طِرْتُ خارجَ البيتِ! رُميتُ كأنّنا خارجاً مثلَ أكياسِ من النفايات، ما الذي يعنيه البيتُ إذا كُنّا سنُرمى منه هكذا؟!

الزّنانةُ إياها

كان الدخانُ أسودَ، والسماءُ حمراءَ، حمراءَ مُلتهبةً! اعتقدتُ أنّي في كابوسٍ وأنّي سأصحو، إلّا لم يمرّ سوى ثانيةٍ واحدةٍ. كنتُ أمسكُ جوالي في يدي، هذا ما وعيتُه! ثانيةٌ فقط! ثمّ من بعيدٍ رأيتُ خيالًا أبيضَ، رجلًا! الدنيا ليلٌ، وخيالاتٌ بيضاءُ وحمراءُ! كان الأقاربُ يُنقذُوننا حينها، يحاولون، ولكنّي لم أستوعبْ شيئًا، كنتُ أنادي وأصرخُ، لكنّي كنتُ أصرخُ حقيقةً وأسمعُ صوتي! جاء رجلٌ لا أعرفه -علمتُ لاحقًا أنّه كان ابنَ عمّ أبي- سألني من أنا، كان قد سمعَني وهو يبحثُ بين الركام، وحاول انتشالي. كنتُ بعيدةً خارجَ مكانِ الانفجار، لقد طيّرني الصاروخُ؛ ولهذا نَجَوْتُ! لم أكنْ مدفونةً كليًا تحت الردم. لقد استُشْهِدَ فيه بصاروخين! الصاروخُ الأولُ طيّرَنا، والثاني سحبَ الدارَ، شفطَ الدارَ؛ صاروخٌ فراغيٌّ! نزَلتِ الدارُ كلّها بطوابقِها!

لم يحتمل زوجي مشاعر الخوف الشديد في عيون الأطفال، كان قلبه يتقطّع حزنا عليهم

لم أكنْ أشعرُ بشيءٍ. لا أشعرُ ولا أرى جيدًا، الغبارُ كثيفٌ، وكان من حولي يُنقذونَ الآخرين. كنتُ أراهم كخيالاتٍ ولا يرونني؛ كنتُ بعيدةً، وعندما صرختُ عرفوا بي، وانقذوني، وأخذوني إلى المُستشفى. أجروا لي عمليةً، كان الصباحُ قد جاء وصار يومٌ جديد، وعندما استيقظتُ وفتحتُ عيني، وسألتُ عن أولادي وأهلي، قالوا لي إنّ أولادي بخير. طلبتُ أن أراهم، لم أعرفْ أيّ شيءٍ، كنتُ أتألمُ، وحدسي يُخبرني أنّ شيئًا ما حصلَ. كان ظهري مكسورًا، ورجلي ملفوفةً ولا أعرفُ أنّها مقطوعةٌ، وبطني مفتوحٌ وراسي مقطوطٌ بغزرٍ كثيرةٍ. ثمّ جاء أخي لرؤيتي وأخبرني أنّ أولادي استُشْهِدُوا. سألتُ عن أمّي، قال إنّها ماتت أيضًا، وزوجةُ أخي؛ ردّ بنفس الجَواب أنّها ماتت. مات أحدَ عشرَ فردًا من عائلتي! أمي، زَوجةُ أخي، وأولادُنا الثمانيةُ. كان أخي الكبيرُ مُصابًا أيضًا. أمرٌ لا يُمكنُ تصديقُه، لقد كنّا جميعًا إمّا مَيّتين أو مقطّعين، حرفيًا أصبحت عائلتي هكذا. وأثناءَ كلّ هذا؛ دخلتْ غرفةَ العمليات لأجلِ عمليةٍ في ظهري، وجدوا عندي كسرًا في الفقرة الخامسة. أخي المصابُ الذي بترُوا رجلَيْه الاثنين، أُصيبَ بتسمُّم من الصواريخ المسمومة! الصواريخُ نفسُها التي قطعتْ رجلَيْه وأخي في تلك اللحظة، قتله سُمُّها فيما بعد! مات فورًا بعد بترِ رجلَيْه، لحقَ بأمي وأولادي وزوجي! هكذا اختفتْ عائلتي وكأنها لم تُوجدْ يومًا! هكذا كانُوا يختفون من حَولي، ولم أملكْ حتّى الوقتَ لأفكّر، كنتُ أنا نفسي بينَ الحياة والموت، أصحو وأتألمُ، ثمّ أغيبُ عن الوعي!

هُناءُ، أختي تبلغُ من العمرِ سبعةً وعشرين عامًا، أمُّ لولدينِ، ماتُوا مع أطفالي. هُناءُ رَبّتْ أطفالها وحدها، زَوجُها سافرَ بسبب الأوضاع الاقتصادية والبطالة ليَعمل ويُوفّرَ لهم الحياةَ الكريمة. كانتْ بجانبي أثناءَ الانفجار وبَقيتْ معي في المستشفى، وفُقدَتْ طِفْلَتُها. هذه صورتُهم، انظري! هؤلاء هم أبناؤنا الأربعة! هؤلاء هم قبلَ الموت، وهنا بعدَ الانفجار! انظري إلى هؤلاء الملائكة! من يَقْتُلُ أطفالًا لم يتجاوزوا عدّةَ سنواتٍ! لقد ماتُوا فورًا، ارتاحُوا من هذا العالمِ القاسي! ابنُ أختي عُمره سنتانِ ونصف، اسمه نُبيل، عندما وُلد كان والده مُسافرًا، لكنّه جاء وراه عندما كان عمره ستّة أشهر، أمّا ابنتُها أسيل فوُلدت في غيابه. أتتْه لمّا يزها على الإطلاق. البطالةُ المتفاقمةُ في غزّة أجبرت الرجالَ على السفرِ ليجدوا فُرَص عملٍ، لتعيش بقيةُ العائلة. كان زَوج هُناء لا يُريدُ تركَهم وحدهم، لكن لم يكنْ من خيارٍ، لقد خاطرَ بحياته، ذهب عن طريقِ تركيا والبونان وعبرَ البحرَ مثلَ كلّ اللاجئين. خِفْنا عليه أن يَغْرقَ، لكنّه نجا، وكنّا ننتظرُ أن تستقرّ أمورُهُ لتذهبَ أختي وأطفالُها إليه. ولكن حصلَ ما حصلَ في غيابه، وماتَ أطفالُه! بَقيتْ أختي وحيدةً، وبَقيتُ أنا وحيدةً، نُشعرُ أنّنا سنَموتُ معًا أو نَحيا معًا. ذلك اليومُ المشؤوم لا يغادرُني أبدًا، يناموا! ابنُ أختي يقولُ لأبيه: بابا وين أنتَ؟ ويُعيدُ السؤالَ! أبوهُ يُجيبُ: أنا في الشغل، فسألهُ: ورجيني، كان أبوهُ في البياض، فجعلهُ أبوهُ يراهُ في البياض ويبتسمُ؛ نُبيل، دِيرْ بالكَ عليّ ماما وانتبهْ لنفسك ولا تُعذّبها، بلّا بوشها. وصارَ نبيلُ يُقبّلُ أمَّهُ ثمّ يُقبّلُ أباهُ في شاشةِ الهاتف، كانت أختي تُرضعُ ابنتَها، عمرُها سنةٌ؛ أنا أسردُ لكَ الأحداثَ بشكلٍ غيرِ متسلسلٍ؟ اعتذرُ! أنا مُشوّشةٌ، نعم، حصلَ هذا قبلَ أن ينامَ الأطفالُ؛ أقصدُ قبلَ أن يموتوا.

أختي هُناءُ روتْ لي ما حصلَ بعدَ انفجارِ الصاروخ. قالتْ إنّها وعتْ فقطْ عندما رأتْ رأسي مشقوقًا، وذكرتْ أنّي كنتُ غائبةً عن الوعي، وجسمي كلّهُ محروقٌ. رغمَ أنّي اعتقدتُ أنّني كنتُ واعيةً، لم أكنْ أُدركُ مدى الإصاباتِ التي تعرضتُ لها. كنتُ أرى وتدورُ حولَ بيتِنا؛ فكرتُ أنّنا في خطر، وأنّنا يجبُ أن نخرجَ من هُنا! كنّا نَتتبعُ الأخبارَ رغمَ عدمِ وجودِ النت، نشحنُ جوالاتِنا قليلًا إذا توفّرتِ الكهرباءُ لنعرفَ خبرًا ما، وكانت الأخبارُ تأتي بالمزيدِ من الموتِ والمزيدِ من فقدِ الناسِ الذين نعرفهم! موتٌ في كلّ مكانٍ، بيوتٌ كلّ من نعرفُهم. قلتُ في نفسي، سوفَ نموتُ أيضًا، رأيتُ الموتَ أمامي، ولكن لم يكنْ الخيارُ أمامَنا. إلى أينَ سنَذهبُ؟ سلّمتُ أمري لله، وقلتُ أموتُ أنا وأطفالي وأبقى معهم، وألّحقُ بزوجي! ثم، نعم! اذكُرْ أنّ الأطفالَ حينها نامُوا، غرقُوا في النوم. اطمأنّنا عليهم في الغرفةِ الأخرى التي تحوي نافذةً كبيرةً، قلتُ لأختي لنَستنشقَ الهواءَ قليلًا! كان للغرفةِ بلكونةٌ، كانت أمي تتمددُ في الصالون لأنّنا اعتقدنا أنّه أكثرُ أمانًا، وكنّا نستطيعُ أن نتحدثَ مع بعضنا. زَوجةُ أخي الكبير، حنين، وأخي جهاد، يطلبون منّا الانضمامَ إليهم، يقولون... نعم ما زلتُ أذكرُ! يقولون تلك الجملةَ: لماذا كلّ واحدٍ ينامُ في جهةٍ؟ تعالوا لِتنضموا إلينا، على الأقلّ إذا متْنا نموتُ معًا؛ كنّا أنا وأختي كلّ واحدةٍ تُريدُ أن تبقى أطفالُها في حُضنِها، وهكذا قُرّرْنا أن ننامَ ونُبقي أطفالَنا في حُضنِنا لنحميَهم، نُفْهِم بأجسادِنا. كانوا طريّينَ جدًا وصغارًا! فرَشْنا الغرفةَ كلّها لنتمدّدَ، ننامَ فعلًا، وحنين زوجةُ أخي نامتْ إلى جانبنا، أمّي مقابلَنا وهي تُنادي وتقولُ أيضًا: لماذا تنامُون باكرًا؟ حين قالتْ أمّي ذلك، قلتُ، سوف نُنيمُ الأطفالَ ونأتي إليك.

كانَ الوقتُ يمرُّ ببطءٍ شديد. اتصلَ زوجُ هناء الغائبُ، راى أطفالَهُ على الجوال قبلَ موتهم، ودّعهم، يا الله! كانَ القصفُ حولَنا، كانَ يسمعُ صوتَ القصفِ على أبنائِه من غربتِه في أوروبا. أمي تقولُ لنا: تعالوا! والأطفالُ يُشيرونَ لأبيهم ولا يريدونَ أن يناموا! ابنُ أختي يقولُ لأبيه: بابا وين أنتَ؟ ويُعيدُ السؤال! أبوهُ يُجيبُ: أنا في الشغل، فسألهُ: ورجيني، كان أبوهُ في البياض، فجعلهُ أبوهُ يراهُ في البياض ويبتسمُ؛ نبيل، ديرْ بالكَ على ماما وانتبهْ لنفسك ولا تُعذّبها، بلّا بوشها. وصارَ نبيلُ يُقبّلُ أمَّهُ ثمّ يُقبّلُ أباهُ في شاشةِ الهاتف، كانت أختي تُرضعُ ابنتَها، عمرُها سنةٌ؛ أنا أسردُ لكَ الأحداثَ بشكلٍ غيرِ متسلسلٍ؟ اعتذرُ! أنا مُشوّشةٌ، نعم، حصلَ هذا قبلَ أن ينامَ الأطفالُ؛ أقصدُ قبلَ أن يموتوا.

أختي هُناءُ روتْ لي ما حصلَ بعدَ انفجارِ الصاروخ. قالتْ إنّها وعتْ فقطْ عندما رأتْ رأسي مشقوقًا، وذكرتْ أنّي كنتُ غائبةً عن الوعي، وجسمي كلّهُ محروقٌ. رغمَ أنّي اعتقدتُ أنّني كنتُ واعيةً، لم أكنْ أُدركُ مدى الإصاباتِ التي تعرضتُ لها. كنتُ أرى وأسمعُ الخيالاتِ التي أخبرتُك عنها، لكنّهم ظنّوا أنّني غبتُ عن الوعي، بينما كنتُ أشعرُ بكلّ شيءٍ. في المستشفى، سمعْتُ أخي يقولُ إنّ اللهَ اختارَ أهلَنا وأولادَنا ليأخذَهم إليه. كانَ أخي الكبيرُ يقولُ إنّنا سندٌ وعائلةٌ ولنْ يتركنا. كنّا نبكي بلا توقّف، وهو نفسه الذي تسمّر من الصواريخ. بعد أن قالَ لنا: نحنُ عائلةٌ وسنبقى معًا، ماتَ بعدها بعشرةِ أيام مسمومًا ومبتورَ الرجلين؛ كانت العائلةُ تختفي واحدًا تلوَ الآخر، كنتُ لا أصدّقُ ما يحدثُ حولي. أين ذهبوا جميعًا؟

دخلوا المشفى دفعة واحدة، خرجوا ميّتين دفعة واحدة

في الأيام الثلاثة الأولى في المستشفى، كانت رجلي ملفوفةً ولم أعرفْ ما حلّ بها. لم أعتقدْ أنّ هناك بترًا، اعتقدتُ أنّهم فقط يُغيّرون الضمادات ويُنظّفُون الجروح. لم أشعرْ بألمٍ كبير لأنّ جسدي كلّه كان مليئًا بالجروح والحروق. اعتقدتُ أنّ إصابتي البليغة كانت في رأسي المشقوق، ثمّ علمتُ أنّ قدمي بُتِرتْ من الكعب وتحت. قالوا لي إنّ الجرح تسمّم، وتحوّل إلى لونٍ بنفسجيّ، وأنّ التسمّمَ كان سينتشرُ في جسدي ويُميتني. كان التسمّمُ بالصواريخ حالةً شائعةً، وفي المستشفى مع نقص الأدوية والمواد الطبية الأساسية، اضطرّ الأطباءُ للحفاظ على حياةِ المرضى باللّجوء إلى خيارِ الحياة أو الموت، بعبارة أخرى، خيارُ التّقطيع بديلًا عن الموت. كانت الأجسادُ تتآكلُ والناسُ ترى بعينها الدّود يلتهمُ أجسادَها. رأيتُ الدّود يخرجُ من جروحي، رأيتُ تقشّحَ جسدي وأنا ما زلتُ على قيدِ الحياة. أخي قبلَ موتِه كان الدودُ يخرجُ من جروحِه. كان خيارُ البتر بالنسبة للأطباء هو فرصتي الوحيدةُ للبقاء على قيدِ الحياة. الحمدُ لله، لقد عشتُ!

مجزرةُ عائلة البكري، هكذا سمّوها؛ كانوا أطفالًا جماعيًا، أخبرنا النازحون أنّ بعضَ الجنود الإسرائيليّين كانوا يدخلُون المشافي ويسرقون أعضاءَ الناس، حتّى كُلوهم. قالوا إنّ هذا حصلَ في مشفى ناصر. كانت قصصًا لا يُصدقها عقلٌ؛ كانُوا يقتلونَ بلا هدفٍ، يجمعونَ المرضى مع مرافقيهم ويقتلُونهم معًا. الناجونَ أخبرونا بكلّ تلك الأمور الفظيعة، ونحنُ رأينا من نوافذ المشفى أحيانًا. كان الجنود الإسرائيليّون يقتلونَ بشكلٍ فرديٍّ أو يجمعونَ الناس ويقتلونهم دفعةً واحدةً. امرأةٌ قالتْ لجنديٍّ إسرائيليٍّ: «ابعدْ عنّي أنا حامل»، فضربَها في بطنِها بالسلاح. كلّ الأشخاص الذين كانوا يعتقلونَهم يختفُون تمامًا! حصلَ كلّ هذا، وأنا وأختي في المشفى، مذعورتَين كبقيةِ الناس، وقلتُ لأختي يجب أن نخرجَ. كلّ ما حولنا مُدمّرٌ، والناسُ من حولنا يتحوّلون إلى جُثثٍ مُشوّهةٍ بفعلِ الكُوادكابتر. جُثثٌ رميةٌ في الشوارع. كلّ العباراتِ لا تستطيعُ أن تُعبّرَ عن الكوارثِ التي عشناها؛ الخوفُ كان يلفّنا كغلافٍ أسودَ كثيف.

أمرٌ لا يمكن تصديقه، لقد كنّا جميعا إمّا ميّتين وإمّا مقطّعين، حرفيا أصبحت عائلتي هكذا

كلّ شيءٍ كان يتداعى من حولنا. كنّا نرى عبرَ النوافذ مشاهدَ الموتِ تتكررُ كأنّها كابوسٌ لامتناهٍ. كانوا يقتلُون الناسَ بأبشعِ الأساليب، وفي كلّ لحظةٍ كان الرعبُ يطاردنا. أصبنا بهلعٍ شديد، وعجزنا عن البقاء في المشفى، فقرّرنا الخروجَ منه، وكان هدفُنا الوحيدُ هو الوصولُ أحياءً إلى خيمةٍ أهلنا في رفح. وصلنا إلى هناك، وأرسلَ لنا أخي سيّارةً تنقّلنا، ونجونا. لكنّ الهروبَ من جحيمٍ إلى جحيمٍ أخرَ لم يكن أقلّ بؤسًا. عشنا في خيمةٍ في منطقةِ المواصي، لا يوجدُ حماماتٌ، منطقةٌ خيمٌ حيث لم تكن هناكَ مرافقُ صحيةٌ. الحمامُ كان مشتركًا لأكثرَ من ثلاثمئة شخص، وكانت خيمتُنا التي صارت سجنًا لنا موضوعةً على رملٍ لا يمكنُ التحرك فوقَها بكرسيٍّ متحرك. كانت الحياةُ في المخيم كابوسًا مُوازيًا، حيث كانت جروحي مُلتهبةً، وجسدي يعاني من الألم في الليل من البرد وفي النهار من الشّمس، دون أدويةٍ أو سرير أو طعامٍ كافٍ. وصلنا في ديسمبر، وبدلًا من أن نرتاحَ، كنّا نَعيشُ في ترقبٍ دائمٍ للموت، حيثُ القصف لم يتوقف لحظةً. ثلاثةُ شهورٍ قضيناها في انتظارِ مصيرنا، ننتظرُ الموتَ، كنت أقول الشّهادةُ يا الله، خُذني لزوجي وأطفالي، وكانَ الشّكُّ يساورني في نفسي: لماذا يقبضُ على قيدِ الحياة؟ رُبّما لحكمةٍ ما جعلني أعودُ إلى خيمة، وربّما للحكمةِ نفسها لم تنزل الأمطار ولم نغرقْ في الخيام، كنّا نعيشُ في العراء. المخيمُ كان يعجُّ بالآلاف، بلا ماء، وبأسعارٍ مثل النّار. كان أخواي يسافران إلى مكانٍ بعيدٍ ليحضروا لنا الماءَ، ومع ذلك، لم نكن في مأمنٍ حتّى هُناك، فقد كانوا يقصفون رفحَ أيضًا. في النهاية، قرّرَ أهلُنا أن نتركَ الخيمة في رفح ونعودَ إلى بيتِنا المدمّر لنصنعَ خيمتنا فوقَ رُكامه. كانَ الإسرائيليون في كلّ مكانٍ، بلاحقوننا أينما ذهبنا، ورُغم ذلك، لم يتوقفِ القصف. لم يتوقفِ الأمرُ عند هذا الحدّ. أخافُ أن أقولَ ذلك! لكنّ منظرَ الجثّث صارَ عاديًا، والأشدُّ فظاعةً كانَ نبشَ قبورِ الموتى. قال الناسُ إنّ الجنودَ الإسرائيليّينَ نبشُوا قبورَ الناسِ وأخرجُوا جثثَهم، وها هُم المتوحشون نبشُوا قبورَ أطفالي. هل تصدقين ذلك؟ الحمدُ لله أنّهم تركُوا قبرَ زوجي كما هو، ولكنّهم لم يرحمُوا قبورَ أطفالي. قتلُوهم، ولم يتركوهم بسلامٍ حتّى بعدَ موتِهم! كيفَ يُفكرون؟ ماذا يريدون من جثثِ أطفالٍ صغار؟ ماذا سيفعلون بأجسادِهم بعد أن قتلوهم؟

اتصدقينَ؟ لو سمعتَ هذه القصةَ لما صدّقتَ، لكنّها حصلَت معي، لقد سرقوا جُثث أطفالي، كيفَ يُمكنني أن أنامَ وعيوني مليئةٌ بالأسئلة: أينَ رُفاتُ أطفالي؟ لماذا سرقُوا جُثّتهم بعد أن قتلوهم؟ كيفَ سيهدأُ بالي وأنا لا أعرفُ أينَ هم؟ أقضي ساعاتِ الليلِ أتساءلُ عن مصيرِهم، وينهشُني السؤالُ من الداخل: أينَ أطفالي؟ أينَ رفاتُهم الآن؟

من يوميات القصف والجوع والموت والقهر (عبد الرحيم الخطيب/ الأناضول)

الوداع الأخير (عبد الرحيم الخطيب/ الأناضول)